Journal of Languages & Translation
P-ISSN: 2716-9359 E-ISSN: 2773-3505
Volume 05 Issue 01 January 2025 pp.490-503

تأويلية اللغة وماهية الحقيقة في أفق الهيرمينوطيقا الأنطولوجية

The Hermeneutics of Language and the Nature of Truth in the Horizon of Ontological Hermeneutics

رانيا مريخي[1]
جامعة محمد لمين دباغين سطيف-2-
مخبر: مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب
ra.merikhi@univ-setif2.dz
https://orcid.org/0009-0005-6681-3471

Received *05/08/2024* ***Accepted*** *07/10/2024* ***Published*** *01/01/2025*

الملخص

يقوم الفهم الكامل للتجربة الوجودية الإنسانية مع العالم والأشياء بوصفها جوهر التفكير وماهيته. ما أدى إلى انعكاس التصوّر حول الحقيقة داخل العمل الفني الذي أضحى فضاءها المطلق وطبيعتها الأولى. تهدف الدراسة، إلى بسط تصوّرات الفلسفة الأنطولوجية في سعيها لاجتراح ماهية اللّغة في تجاوزها للمفاهيم الكلاسيكية. وماهية الحقيقة الوجودية التي لا تتجلّى إلا في إطار العمل الفني. فما هي إسهامات المنجز الأنطولوجي في الدّرس اللغوي ومبحث الحقيقة الإنساني؟ لذلك ارتأينا المقاربة التأويلية وفق التصور الأنطولوجي للوقوف على التجاوزات والإضافات التصورية الفريدة لمبحث اللغة والحقيقة في سياق الفلسفة الوجودية. وخلصت الدراسة إلىأن المدارس اللسانية قد قزّمت الرؤيا إلى اللغة وجعلت منها وسيطا تواصليا من جهة، مثلما فعلت المدارس الجمالية التي اقتصرت الجميل والفن في حدود المتعة الجمالية.

الكلمات الدالة: اللّغة، الأنطولوجيا، الحقيقة، الوجود، الجميل.

Abstract

Discussions on language became inseparable from a series of concepts, laying the foundation for a complete understanding of the human existential experience with the world and objects, seen as the essence and core of thought. This shift altered the perception of truth, especially within the context of artistic creation, which became its absolute realm and primary nature. The study aims to explore the ontological philosophy's effort to reconsider the essence of language, moving beyond classical concepts, and to examine existential truth, which manifests exclusively within the framework of artistic works. The key question addressed is: What are the unique contributions of ontological thought to the fields of language and truth within existential philosophy? The study concluded that linguistic schools have reduced the scope of language, confining it ta a mere communicative tool, while aesthetic schools have similarly limited the concept of beauty and art to the boundaries of aesthetic pleasure.

Keywords: language, ontology, truth, existance, beauty.

---

[1] المؤلف المراسل: رانيا مريخي، ra.merikhi@univ-setif2.dz

Journal of Languages & Translation © 2025. Published by University of Chlef, Algeria.
This is an open access article under the CC BY license http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

مقدمة

إنّ مسألة الخوض في طبيعة الفكر الإنساني الحديث، واستحضار مشهد التحوّلات العميقة التي أسفرت عن ملامح التجربة المعيشة المعاصرة بعوالمها التقنية، ومظاهرها الأداتية التي رسمت معالم الميتافيزيقا الصناعية الراهنة، تستدعي منّا تفعيل النشاط التأويلي، بهدف الكشف عن الترسبات العميقة التي نأت بالكائن الإنساني عن التجربة الأصيلة في إطار علاقته بالوجود، وفهمه حدود الكينونة التي يؤطّرها التفكير في منحى انعطافي ثوري، ساهم إلى حدّ ما في خلق الفرق الأنطولوجي بين الوجود والموجود، والذي تحددت من خلاله هوية الأنطولوجيا في نسختها الجديدة مع هايدغير.

ولعلّ فلسفة هذا العصر الذي يحيا فيه الإنسان الراهن، كانت جديرة بخلق تلك الغربة والوحشة لدى الكائن في بعده عن مأوى الوجود، وتلاشت مظاهر الإنسان الحقيقي الذي يدرك وجوده ككائن في التاريخ بعدما جعل هذا الأخير كيانه، رهن تجربة تؤطرّها المؤسسة الأداتية وتعسفية الفضاء السيبرنيطيقي، وتحوّل الإنسان بعدئذ إلى منتوج/مادة اصطناعية تشرّست على فرادة الدازاين، بوصفه الصفوة في قدرته على إدراك ماهية العالم / الوجود.

لم يكن الطرّح الهايدغيري في خصم هذا المعترك التكنولوجي التقني-غربيا، بالقدر الذي تتضح فيه مسافة الغربة بين مظاهر هذا العالم الرقمي، وطبيعة الكائن الإنساني في علاقته بالكينونة باعتبارها التجربة الأصيلة، فقد كان هايدغير من الفلاسفة الذين استنكروا الحياة الشكلية التي خلّفت خواءً روحيا لدى الإنسان، وحادت به عن الدّرب الصحيح المؤدي إلى تفجير الطاقات التأملية لدى الإنسان لاستحضار العالم و الأشياء ومن ثمة الحقيقة عبر دروب الفن الأصيل الذي ترعاه الأنطولوجيا، التي اقتربت بنا إلى الأساس الحقيقي للوجود الذي يتجلى في خبرة الكائن الإنساني مع اللغة كونها بيت الوجود وهو الراعي له. حيث إنّ ماهية التجربة الوجودية الإنسانية، وحقيقة السكن التاريخي للكائن الوجودي، إنّما تتحَدَّدُ بمظاهر القرب والاستوطان داخل اللغة، لكونها الضامن الرسمي لحركية الوجود وتجليه بين التكشّف والتحجّب بما هو كذلك.

وأمام هذا الوضع نجد أنفسنا في صراع هام مع عديد الإستشكالات التي تشكِّل بوصلة الطريق في بحثنا عن ماهية اللغة وتبعاته من المباحث التي تشّكل أجزاء من هذا الكلّ لابدّ منها في تفسير مجموع العلائق التي يتأسس من خلالها الوجود وعليه:

فإذا كانت اللغة بهذا الاعتبار من حيث أنّها الصّرح الذي تنبجس فيه الموجودات والعالم على نحو جَلِيّ، فكيف بإمكاننا إذن أن ندرك اللغة بهذا المفهوم الأنطولوجي في كونها واهبة العالم وما الإنسان سوى وسيلتها لذلكّ؟

ما نسعى فيها إلى إبراز ما استطاعت تحقيقه الآفاق الأنطولوجية التأويلية في تكوين رؤية فرادية مستجدّة عن الطرح الكلاسيكي للغة في هذه المقاربة التأويلية.

1. في الطريق نحو اللغة: من لغة الميتافيزيقا إلى لغة الماهية

لا ريب في أنّ سؤال اللغة، شكّل عديد الانعطافات التي طوّرت مجال الاهتمام بها، وامتدّت مشاريع البحث فيها إلى ميادين متاخمة، سعت إلى سَبْرِ مكامن هذه الطاقة الفعّالة التي ارتبطت بالكائن الانساني وحده دون غيره، حتى أضحى الاشتغال عليها فلسفة أَبْدَعَت في ابتكار عديد المناهج والآليات التي عملت على تفسير نشاطها لدى الإنسان من جهة، وإمكاناتها في إظهار الموجودات و الأشياء على سطح العالم-من جهة ثانية- ومن ثمة إدراك هذا الوجود الذي تكفله عبر نظامها الذي

يتجلّى رموزا وإشارات، تستدعي من الإنسان الاشتغال على تأويلها وتفكيك مدلولاتها، انطلاقا من أنّ التجربة الإنسانية في هذا العالم، تجربة تَتَسَيَّدُها اللغة كوسيط، يضمن شرعية العلاقة بين الكائن والوجود.

والملاحظ أنّ مسيرة البحث في الدرس اللغوي، أخذت أشواطا عديدة داخل مسار تاريخي ضارب في القدم، استطاع هذا المشوار عبر مقارباته المعرفية و المنهجية التي اختلفت مضانة الفكرية أن يؤسس الوعي الكافي لهذا السلطان الذي يسكننا بالقوّة، ذلك أن فهم العالم والأشياء لن يكون ممكنا إلّا في ضيافة اللغة، ولن يكون التفكير تفكيرا إلاّ إذا استبانه جوهر اللغة على اعتبار أنها صياغة عرضية لإرادة الفهم و الانفهام لدى الإنسان المصاحبة له في الوجود، فالعالم قائم على نظام علائقي شديد الإحكام في بنيانه بين الإنسان و الآخر، وبين الآخر والوجود، وليس غير اللغة أساسا يحكم هذه العلاقات في طابعها الحواري لتأسيس الفهم والتفاهم، لأن الفهم هو " فهم باللغة وفي اللغة ضمن هذا العالم الذي تخلقه،. بوصفه الأرض المشتركة بين الناس، والتي عليها يقوم الفهم والحوار والتفاهم"(عبد الغني بارة، 2017، ص6.) ولاشيء بإمكانه القيام خارج اللغة التي وحدها، القادرة على إدراك الأشياء وفق نظامها الكلّي.

وحريٌّ بنا الإشارة، إلى أن فضل الدّرس اللساني المعاصر الذي أحدث منعرجا فكريا حاسما، قلب النسق المعرفي القديم باللغة، بل ويجوز لنا القول أنّ الخطاب اللساني استطاع أن يلفت النظر إلى مبحث اللغة بشكل علمي ومنهجي مخصوص، تفرّغ لأبحاثه كعلم مستقل بذاته، مستحدث الآليات والمناهج عبر سلسلة ممتدة من المدارس والمذاهب، بدءًا من جهود اللّساني فرديناند دو سوسير (ferdinand de saussure) (1857-1913) وصولا إلى بنيفنيست (Benveniste) (1902-1976)، بيرس (Pierce) (1839-1914)و تشومسكي (Chomsky)(1928).

فضلا عن الفلسفات اللاحقة التي جعلت من اللغة موضوعا، لا ينفك عن البحث في ماهية الإنسان و العالم، وقد جعلت هذه العلوم من اللغة مادة تخضع للدّراسة والتحليل قصد استنباط القواعد والأسس بشكل إحصائي، والنظر إليها في كونها أداة تخضع لإرادة الفرد الإنساني وأنّ الجماعة هي المؤسسة الإبداعية التي برعايتها يتم تطوير اللغة والعلامات ومعجمها، لتصبح اللغة و-الحال هذه- مملوكة بالفرد، خاضعة لقوّته التداولية / المكرورة، لتتشكل بعد ذلك الأنساق الثقافية داخل الفضاء الاجتماعي، وتتحوّل اللغة إلى أداة طيّعة في يد الإنسان ويصبح النظر إليها على أنّها " ذلك المخزون الذهني من الصّور داخل الجماعة اللغوية، لتتمظهر المفاهيم الكبرى للغة، وكل ما يشكّل حجر الأساس لطبيعة الكوجيتو اللغوي بين الذات المتكلمة وقدرتها على إنتاج ألفاظ اللغة ومعانيها(بن طروات جلول ،2012،ص 133.) ولا تعدو هذه النظرة إلا أن تكون ثمرة الصبغة العلمية التي سعت إلى اختزال اللغة في جوانبها الفيزيولوجية المادية والمحسوسة، والتي كّرست مظاهر الاعتقاد بأنّ اللغة طاقة تفجّرها الذات الفردية في كونها كائنا مخصوصا بها والعقل سواء.

ولا تعتبر الأبحاث اللغوية في مجال الدّرس اللساني، منتهى ما بلغت إليه الدّراسات في طابعها المنهجي والإجرائي حول اللغة، وإنّما بإمكاننا القول أنّها تطوّرت مع مذاهب الدّرس الفلسفي المعاصر، لاسيما الفلسفات الوجودية التي أَضْنَتْ البحث في الكينونة الإنسانية، وكل مايتعلق بالموجود الإنساني والعالم في المنحى الأنطولوجي، فضلا عن مسألة اللغة في علاقتها بالوجود. فكانت بمثابة الحجر الأساس الذي قامت عليه أنطولوجيا مارتن هايدغير في بُعْدِها التأويلي للوجود، باعتباره "الكلمة"وعبر هذا التصوّر أحدث هايدغير خلخلة فكرية على مجال التصوّرات الميتافيزيقية لماهية اللغة، وقلب موازين الاعتقادات العلمية للغة، وسعى لتشييد صرح فكري على أساس أنطولوجي: يجعل منها تجربة يقتضي الدخول إليها التمكّن من طقوس هذا الطريق التأملي الذي يقوم عليه، للوقوف على ماهيتها، ومن ثمة فهم الوجود المُمَرَّدِ تحت صرحها الفلوت، وَحَسْبُ الإنسان أنّه ملقى به في صميمها خاضع لسلطانها عليه. وعليه يتبيّن لنا أنّ "طبيعة الصّرح اللغوي الذي يشيّده هايدغير، ينطلق من إضفاء الطابع الوجودي على حياة العلامة باعتبارها كائنا يحيا في الوجود باعتبار اللغة مقرا

وبيتا له (المرجع نفسه، ص139.) ومن هذا الإطار، تبلور سعي هايدغير في جعل الكلمة خبرة، يتأسس كلا من الوجود والكائن ضمنها، على الأساس الذي يستدعيه المنحى الأنطولوجي، في أن يتجاوز الرّؤى التقليدية التي جعلت من الذات مؤسِسَة الوجود، عبر إدراكها للأشياء والعالم في تعالها عليه.

وقد أشار هايدغير إلى نقطه حسّاسّة، والتي من شأنها أن تشكّل الصعوبة أمام الإنسان في سبيله نحو اللغة، أنّها ترجع بالأساس إلى هاجس الخطاب اللغوي بطرائقه التقليدية ومناهجه، التي لمَّا تَزَلْ عالقة بالفكر التصّوري للفرد، لتقذفه بعيدا عن الأساس المؤدي إلى إدراك اللغة في ماهيتها الحقيقية بوصفها لغة الماهية. وعلى هذا الأساس كانت محاولة هايدغير، دعوة صريحة لاستبعاد الطرائق العلمية والمنهجية التي عملت على جعل اللغة معادلة رياضية قابلة للتحليل على صيغة أضحت من خلالها مادة سَمِجة، تحت مِلَّة العلمية والمنهاجوية التي لا يهمها من اللغو سوى تتبّع براعتها التقنية المحققة في النصوص والخطابات.

ولهذا السبب، لم تكن أبحاث الخطاب اللساني المتوارث في بَعْدِه المنطقي والعلمي، سوى أسلوب يحاول أن يكيّفَ اللغة مع الواقع، خاضعة لمقتضيات فضاءاته السطحية قدر الإمكان، ذلك راجع إلى أنّ هذه النظريات تنظر إلى اللغة على أنها طاقة تحيا بالاستعمال اليومي والزمني وأنّ حاجة الإنسان في الواقع هي التي تساهم -بالدرجة الأولى-إلى ابتكار المصطلح للدّلالة عليها. ومن ثمة غابت الرؤيا التصوّرية إلى الكلمة باعتبارها تجربة وجودية عميقة، تتجاوز حدود الواقع الإنساني وليست حَبِيْسَةَ الجانب الحسي و المادي فقط، انطلاقا من أنّها في جانبها الخَفِيِّ هي عبارة عن مُضْغَةٍ مخَلَّقةٍ في رحم الخيال بوصفه فلسفة الاستشراف/الممكن/المطلق/الهارب على نحو مائز، لأن الكلمة في حدوده تغدو جزءًا لا يتجزّأ من ملكة التأمّل لدى الإنسان، لأنّ هذا ما تستدعيه خبرة الكائن الإنساني مع اللغة التي لا تعني كما كانت تمليه الدراسات اللسانية في طابعها العلمي المحض"(...) أن تقوم بتجارب على اللغة أو تجمع معلومات عنها كما يفعل علماء اللغة و ما بعد اللغة، بل معناه أن تنتبه إلى "علاقتنا باللغة"، ونتأمّل في سكننا في اللغة وتستوضح طبيعة شيء يتعلق بصميم وجودنا(صفاء عبد السلام جعفر، ص 25،26.) لندرك بأحقية ووضوح أنّ اللغة أرفع من أن تكون أداة أو وسيلة يتملّك ناصيتها الكائن كجسر يمدّدنا آفاق الوعي إلى مجال المعرفة الإنسانية -بصفة عامة-وحسب، إنّ اللغة بهذا المنظور هي مركز الوجود وواهية النور لكل موجود، الذي يجد هو الآخر في إمكاناتها اللامحدودة، طريقه للانفتاح والظهور على نحو منفرد وخاص.

ولا غَرْوَ، في هذه الرؤيا التي خلخلت التصوّرات السابقة حول اللغة الإنسانية على نَحْوٍ لم يسبق من قبل، حتى بإمكان الواحد منّا أن يعدّها عودة مباشرة لسلطة النسق اللغوي الذي تقف الذات أمامه عبد مأمورا، إلاّ أنّه وبمجرّد أن نوسع آفاق النظر في معطى هذا الطّرح الفلسفي الأنطولوجي المستجدّ للغة، نجد أنّ أنطولوجيا هايدغير هي محاولة النّفاذ إلى اللغة من خلال فعل التفكير بمدلوله الفلسفي، من منطلق تلك الصلة الوثيقة المعهودة بين اللغة والوجود، فالسؤال عن الوجود بوصفه عودة المنسي هو عينة فعل التفكير والسؤال في ماهية اللغة باعتبارها قول الوجود الذي ينطق في "الكلمة" وليس الإنسان سوى دليلها وواسطتها لتتكلّم عن نفسها من خلاله، لتهب للوجود والموجود حضورهما في العالم، وهذا عينه ما جرى إليه سعيد توفيق بقوله: "وإذا كانت "اللغة بيت الوجود" فإنّ اللغة تكشف عن الوجود ذاته وبمقدار ما يتم التعبير عن الوجود عن طريق اللغة، تصبح هذه اللغة لغة الوجود (...) وبالتالي فإن التفكير في الوجود لا يتم إلاّ عن طريق اللغة التي يتمتع بها الإنسان راعي الوجود(مرجع نفسه، ص35.) لأنّ العالم في طبيعته قائم على التحجّب والتخفّي، يستدعي من الكائن تجليته والتعرف عليه إلاّ إذا سلّمنا أنفسنا إلى عالم اللغة وتركها تحدث بوصفها كذلك في ذواتنا باعتبارنا كائنات من صنعها هي وليست من صنيعنا نحن. وعليه" فإنّ من يتكلّم ليس هو الإنسان، بل الكلام يتكلّم من خلالنا، وهذا دون إنكار امتلاك ملكة الكلام."(شنوف نصر الدين، 2022، ص144).

إنّ محاولة هايدغير في فهمه للغة بوصفها خبرة وجودية، فما ذلك إلاّ لأنّ اللغة قوة متحرّرة بشكل مطلق عن ضوابط العالم الواقعي، وهذا ما يعني أنّ الكلمة لا تقول أي شيء بالإمكان ملاحظته أو معاينته. لأنّ اللغة تملك كينونة خاصّة ترتبط بمدى قدرتها الواهية التي تسمي للكائن الأشياء والموجودات، لتكتسب هي الأخرى وجودها وتحقق حضورها في العالم بكل فعلي، وتمنحه الفرصة في أن يعرفه العالم في حدود انفتاحه عليه. فتجربة الكائن الإنساني مع الموجودات هي تجربة ترسم معالمها بوضوح "الكلمة"، فلولا اللغة لما أمكن لعديد الأشياء أن تعرف ماهيتها، وإن لم تحدث بوصفها كلمة، فلن يكون لها وجود أو حراك فعلي في مجمل الحياة الإنسانية التي تقيم داخل سكنها هبة والتسمية وحضورا "إذ أنّ تسمية شيء ما معناها أن نجعله معروفا، فضلا عن أن التسمية قول وتوضيح يحقق الانفتاح للأشياء ويبقي على حضورها (صفاء عبد السلام جعفر ،2001، ص13.) وذلك ب"الكلمة" وحدها لأنّها الكيان الذي يولد فيه الإنسان ويحيا لأوّل مرة، وبصفة مستمرة ومتجددة الولادة، فتحفظ وجوده بصورة يضمن بها حقيقته بوصفها شهادة ميثاق على ميلاده.

وإذا ما عدنا إلى العقيدة الإسلامية نجد ذلك مثبتا من خلال نصوص القرآن الكريم، التي بدورها تَخُطّ للغة معالم هاته الحظوة في إيجاد الموجودات وحتى البشر، إذ يقول تعالى في آياته: << إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةً مِنْهُ اسْمُهُ اَلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِيْ اَلْدُّنْيَاْ وَاَلْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ>> (آل عمران-الآية45) وفي قوله تعالى <<إِنَّ مَثَلَ عِيْسَىْ عِنْدَ اَللهِ كَمَثَلِ أَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاْبٍ ثُمَّ قَاْلَ لَهُ كُنْ فَيَكوُنْ >> (آل عمران-الآية59) فحتى إرادة الوجود الإلهية تتجلّى بكلمة واحدة تُلْقَى بوصفها قولا، يكتب للموجود الانكشاف والظّهور فَيَعِيْ العالم إِذْ ذاك وفي العالم، داخل اللغة بوصفها جمهورية الأشياء تستقي منها ظهورها في بقعة مضاءة من الوجود، لتصنع العالم زمانية اللغة بماهي الزمن الأصيل الذي توجد فيه كل حقيقة.

ولم تكن متانة العلاقة التي تقوم بمقتضاها الأشياء في مملكة الكلمة، -كما أكّد على ذلك هايدغير-عبارة عن التفاتة مستجدة، بالقدر الذي كانت فيها مجرد انعطاف عن تصوّر كان سائد فيما مضى بين كثير من الأمم السالفة، ولعلّ الشاهد الأكبر على ذلك هو ماكان شائعا في التراث الفرعوني فيما تسرده الأسطورة القديمة أنّ [الفراعنة قديما كانوا يسلِّمُون بفكرة الخلود الأبدي للروح البشرية، ذلك أنّ الرّوح أثناء رحيلها عن الجسد. كانت تمرّ بمراحل تعقب رحيلها هذا تسعى من خلالها إلى تطهير روحها، من أجل تحقيق الخلاص أمام الآلهة، لتضمن عودتها آمنة إلى جسدها مطمئنة، إلاّ أنّ ما كان معروفًا آنذاك أنه ما أن يريد فرعون ما إهلاك أحد ما بعد موته وإلحاق الأذى الأعظم به، فليس أمامه سوى أن يَمْحُوَ اسمه من التابوت الذي يحمل جثته، وحيثما تنتهي الروح من مراحل التطهير وترغب في العودة إلى مرتعها، فإنّها لا تكاد تعرف نفسها. وتجد حالها هائمة، تائهة، بلا مأوى ولا سكن يستضيفها، وليس ذلك مصيرا لها، إلاّ لأنّها فقدت ملاذها الأصيل في بيت تؤسسه الكلمة(ينظر: سعيد توفيق، 2002، ص 53،54.) ومن هنا، فإنّنا يتأكّد لنا بإلحاح كبير أنّ "وجود أي شيء يكون، هو وجود يقيم في الكلمة ولذلك فإنّ هذه العبارة تصدق أيضا على القول بأنّ اللغة:هي "بيت الوجود (مرجع نفسه، ص58.)فيما يعني بلغة الأنطولوجيا أنّ الكلمة هي عبارة عن ذلك النّداء الذي يوجّه للموجود القابع في الخفاء، وهنا تظهر القيمة الأساسية للغة بوصفها دعوة للإقامة في سكن الأصيل، وليس أمام الكائن سوى تلبية هذا النّداء الذي لايكف عنه باستمرار، ليَمنح الإقامة الأصيلة لماهو فان.

ولا شك أنّ استجابة المنادى تقتضي منه أن تكون بالقدر الذي يجعله قريبا من طبيعة النّداء في حدّ ذاته، فلمّا كانت اللغة تلك الهبة التي تحدث بوصفها كذلك؛ بوصفها ذلك الذي يقول شيئا ولا يقول شيئا في آن فإنّ طبيعة استجابته هي فعل بديهي من صميمه في حد ذاته، ليكون الكائن بذلك جدير في فهمه لماهية اللغة: لغة الماهية، من خلال فعل الصمت/ الإنصات، وحده التعبير الأصيل الذي يصمّم فرادة الدازين، وعلى هذا الأساس تتحقق الرعاية الأصيلة للوجود. كيف ذلك؟ واللغة هي ذلك الحدث الذي يتأرجح بين مجيء ورواح في كل حين، يتجلّى حينا ويتمنّع معظم الأحايين. وإنّ قولنا إنّ

اللغة تسمّي لكي تظهر الموجودات وتكتب حضورها في العالم، فإنّ لا يعني البتة أن اللغة بهذا المفهوم السطحي، لأنّ التسمية هي نداء من نوع آخر تمارسه اللغة على الأشياء، لتنتزع عنها شيئيتها وواقعيتها. لتنقلها إلى عالمها حيث لن يكون بإمكانها أن تهتك ستر المنادى وخفائه بشكل كلي ، لتضمن الحفاظ على خصوصيتها التي تعهد مكوث الدازاين وراء ذلك السر المخبوء منها على الدّوام، ولا يعدّ ذلك قصورا من اللغة أو محدودية إمكانياتها بقدر ماهو تأكيد على أن اللغة فاشية/ متسلطة/ غاوية/متصنعة في ذاتها ويبقى التفاعل حيًّا في ميدان شغبها بين النداء والمنادى لأنّه "صحيح إذا ماقلنا أن "(...) النداء يجعل مناداه أقرب إليه، لكن هذا القرب لا يجعل المنادى حاضر فيه دائرة الحاضر وطمأنينته (...) فالنّداء يدعو إلى القرب، دون أن ينتزع مناداة من البعد (مارتن هايدغير،1994، ص14.)

وهذا ما من شأنه أن يسعفنا في القرب من إدراك عبارة " أنّ اللغة تحدث بوصفها كذلك"، لأنّها تسلّطت علينا بماهيتها، وليس أمامَ الكائن غير الصمت فلسفة تنتجها هذه الطبيعة للغة، كما أن الصمت لا يُعدُّ عجزا، بقدر ماهو مقتضى الحال الأصيل الذي تثيره اللغة فينا، حينما سكنت ذواتنا بالقوة. وعبر فعل الإصغاء نكون بدورنا -نحن ككائنات في ضيافتها-قد أحْسَنَّا فعل الاستقرار في سكنها، لأنّ الأصل في اللغة ليس الكلام، وإنما هو الإنصات بماهو بيان الفهم الأصيل لتجربة المكوث داخل عالم اللغة ليصبح الفهم وفق المنظور وهو << الإنصات comprendre c'est entendre أو بعبارة أخرى إنّ أوّل مخالطتي بالكلام ليست ما أنتجه بل أن أستقبله << الإنصات هو مكوّن الخطاب L'ouir est constitu du discours (...) (عبد الغني بارة، 2008، ص225.) فنكون قد سلكنا الدّرب الصحيح المؤدي إلى الحقيقة الجوهرية لكينونة، وللحقيقة في حد ذاتها بوصفها أليثيا"Alèthéia".

إنّ فهم هايدغير لماهية اللغة على هذا المنوال، يجعل الباحث في هذا الإطار يدرك بأي شكل من الأشكال أنّه من الصعب علينا فهم المواضيع والقضايا التي طرحتها الأنطولوجيا في حال انفصالها عن بعضها البعض، وأنّ اللغة وفق هذه الرؤيا لم تكن كذلك، إلاّ لأنها امتداد إلى ماهية الحقيقة في جوهرها باعتبارها " أليثيا" Alèthéia، فالحقيقة عند هايدغير تعني عدم الخفاء أو اللاتحجب في مقابل هذا التجلي، يسكن شيء ما من التخفي والتواري؛ ذلك الذي يجعل الحقيقة دوما مستقرة في الغياب، قابعة في "الهناك" على قدر ضئيل مما يقول حضورها، مايجعلها عصّية عن الانتماء الحَدِيُّ لا إلى الغياب دوما ولا إلى الحضور مطلقا بَيْدَ أنّها في ضيافة "المابين" أبدا. هناك حيث يغدو المتعيّن أثرا، ويسحب الغياب الحضور وتبقى الحقيقة مجرد أطياف، وهذا عينه ما أكّده سعيد توفيق في الفكرة ذاتها إذ يقول:" ويمكن للدارس العارف بهيدغير أن يفطن هنا على الفور إلى الصلة القوية بين الكلام الذي يسوقه عن اللغة وبين فهمه لمعنى الحقيقة (...) تعني عملية التكشف أو نزع الحجاب عن الشيء Alèthéia وإذا كانت الحقيقة تكشفا أي لاتحجبا فإنّه في داخل هذا اللاتحجب يتنشر التحجب (سعيد توفبق، ص34.) فمن العصيّ أيضا أن تقول اللغة كل شيء حتى وإن كانت تسمية وإنارة وكشف حقيقي -إلاّ أنها لا تقوى على ترك طبيعتها التي تضيء وتنير للأشياء والموجودات ذاتها وفي نورها كسر للرؤية وحجبها ضرورة.

كما لا تخفى علينا تأثيرات الفينومينولوجيا الهوسرلية التي فرضت نفسها في القراءات الهايدغيرية الأنطولوجية لحقيقة الوجود والكائن الإنساني وعملت على استثمار مقولاتها في بعدها الأنطولوجي التأويلي، لاسيما وأنّ الرؤية جاءت أساسا لإعادة الاعتبار لهذا المنسي في مقابل إلغاء الجانب المتعالي للذات الفردية الإنسانية التي بدى العالم أمامها هو هذا الموجود الذي يحدد هويته، بناءً على تنقله هذه الذات إلى مجال وعيها بالأشياء والظواهر في ماهيتها بشكل خالص. هذا التصوّر الذي جعل الذات أيضا -من ناحية أخرى- مظهرا مركزيا وأعطى الأولوية إلى الكلام/ الحضور/ وأنّ اللغة كيان يتحدد بهذه الذات المتكلمة/الصوت، ثم جاءَ هايدغير ردًّا على هذا التصور الذي شكّل مجرد امتداد للمقولات الميتافيزيقية الغربية، منعطفا على نظرة أستاذه هوسرل، ونظر إلى اللغة على أنّها هي السلطان الذي نقيم نحن في عالمه،

ونكتسب وجودنا من خلال ماهيته، التي يقوم فيها العالم والأشياء على نحو مألوف غريب، ومن ثمة يصبح المتكلم الوحيد في هذا الوضع هو اللغة، حيث تتكلم عن ذاتها لنقول ذاتها، وما على الكائن سوى الإصغاء إلى قولها.

ولو عمّقنا حدود الرؤية إلى فعل الإنصات في بعدها الفينومينولوجي ندرك بسهولة أنّه صيغة أخرى لمقوله الردّ الفينومينولوجي أو تعليق الحكم (الإيبوخا) عند هوسرل، بمعنى أننا ننصت إلى اللغة أي نتركها تقول ذاتها بذاتها وتتنحّى الذات جانبا دونما إعلاء لصوتها في ادعائها بامتلاكها للغة. فنترك المجال للكلمة/ النداء يدعو الأشياء للحضور ومن ثمة يتسنى لنا عملية تأصيل خبرتنا بماهية اللغة عبر فعل الإنصات الذي يعني بصورة جلية وضع أفكارنا السابقة عن اللغة بين قوسين للوقوف على جوهرها، فما تعنيه "لحظة وضع العالم بين الأقواس هي لحظة ترقب الذات لظهور المعنى الأصلي (...) ويبدو أنّ هايدغير استفاد من هذه الخطوة المنهجية ووظّفها في طرحه الأنطولوجي للّغة (محمدّ سباع، 2015، ص80.) فمن خلال ذلك تجد الأشياء متنفّسًا للإحساس بحريتها وسراحها، ويتسنّى لها الخلاص من التعيينات السطحية التي تفرضها الذات، وتزعم امتلاكها باعتبارها العارفة المتحدثة عن الوجود؛ وما ذلك إلاّ لأنها امتداد للفلسفات التي اهتمت بالموجود على حساب الوجود، وجعلت الموجود هو الموجود ذاته دون إدراك الفرق الأنطولوجي بينها، وبهذا التصوّر ألغت حدود الانفتاح على ماهية اللغة وأبعادها وحَدَّتْ من إمكاناتها في حدّ ذاتها عبر تفكير ضيّق يُخِلُّ بجوهرها، مثلما يقزّم الحقيقة في طابع أُحادي مغلق ومطلق -إنّما اللغة من منظور هايدغير هي كيان معنيُ بذاته وحدهّ، والعالم مرهون بطاقاتها في الإظهار والكشف. لأنّه لا فكاك بين اللغة والوجود، إذا كانت اللغة في أبسط تحديداتها "هي السؤال عن الوجود".

2. تجليات الحقيقة داخل العمل الفني: سؤال الصراع بين العالم والأرض:

إن التجربة التي يحياها المرء في العصر الحالي، هي ما يتيح لنا مقام البسط لأن نضع الخطوط العرضية في تشكيل الوعي بضرورة إعادة التّأثيث لمفاهيم عديدة استدعتها الحاجة الملحّة لإرجاع الأصل إلى طبيعته وماهيته الحقيقية، التي ترسّبت تحت عوارض هذا الجو المتاخم بكل ما هو شيء، يلغي بشكل كلي مسألة مراعاة خصوصية مضانها الجوهرية ومعانيها الأصلية، فنلاحظ المدى الذي تتمادى فيه ظواهر الخلط المفهومي وهجرة المعاني اللاّمشروطة فيما بينها، حتى يكاد يعسر علينا القبض على المعنى الجوهري للمفهوم الواحد. ولعلّ ما يقرّب لنا المسألة بشكل أكثر توضيحا، هو مدى بتر الصّلة بإدراك الفوارق المتباينة بين ماهيات المصطلحات، التي تستدعي أن نكفل الحرص على التفكير بها بشكل يتغيّا مشروعيه التأصيل لها بوعي، يدرك بمسؤولية دواعي تغييب الجزء عن الأصل، و أنّه من الصعوبة بمكان قطع الصلة بذلك.

بإمكاننا أن نتأمل حال الإنسان المعاصر، في ظلّ راهينة ما يعيشه في عالم يكتظ بما هو آلي، يعكس بوضوح شراسة هذا الانغماس المشيّء على إنسانيته وجوهر كينونتهفي الوجود. إذ كان ذلك جديرا بعزل الكائن على سكناه ومستقره على نحو أكثر أصالة وحقيقة فليس إذن، بالحدث الغريب مشهدية هذا الاغتراب والبعد الذي تعيشه الذات مع ذاتها والعالم سواء، فنجد هذا الحصاد من اليأس والتيه حتمية تلازمية بنـــي علاقة الإنسان بوجوده والآخر، بل وهذا الجفاء الفكري الذي اقتحم الوعي الإنساني المعاصر بالظواهر، وتعامله مع الموجودات في تسطيحها، وتقزيم فعل التفكير لدى الكائن وإمكانياته التي لا تصمد أمام المسائل والقضايا في هيئتها الوثوقية، الماثلة للانتماء السلطوي المؤسساتي إذا أخذنا مسألة التفكير في طرحها الأنطولوجي على نحو أخص، وهذا وحده ما يكفل للكائن فهم ذاته ومهمته الأساسية في ضرورة الكشف عن الوجود، وإدراك الحقيقة بعد ذلك في إطار أبعد عن المعطى الذي يدعى امتلاكها واختزالها في قالب سطحي، يرى من الموضوعية والعلمية الأساليب الفريدة القادرة على تجليتها دون إمكان آخر. بينما تقضي خبرة الكائن بالوجود على محدودية هذا التصور، الذي هو في الحقيقة ليس إلا تعميم كلّي وواضح على ظواهر وجودانية إنسانية وأخرى طبيعة متباينة من حيث طبيعتها وأساليب حدوثها في العالم، وذلك هو ما يفرض علينا منهجية قراءتنا لها فيما بعد، تفاديا لما بإمكانه أن يعوّر الرؤية للمواضيع بشكل مخلوط.

ربما قد يكون في وسعنا أن نقول، أنّنا استطعنا إلى حد الآن أن نفهم بشكل ما أنطولوجيا هايدغير في سعيها لتثبيت العديد من المسائل والقضايا الوجودية في بعدها المصطلحي أولا، وذلك حتى يسهل شقّ الطريق إلى الظواهر من ذاتها، ونستطيع حينئذ تبوُّء الفهم في مسلكه الصحيح. فلا يخفى علينا منطلق هايدغير الذي كان فيلسوفا مصطلحيا على نحو مائز، وهذا ما أتاح له إعادة ما نعنيه حينما نقول: حقيقة العالم والأشياء هي ما يمكن أن نفكر فيه حقا. حينها تأخذ الظواهر أبعادها الحقيقية، وتتحوّل عن مظهرها السطحي، وتنتقل إلى أصلها الحقيقي باعتباره السكن الجوهري. **فهايدغير ذاته قام بردّة مفاهيمية وتصورية على أفكار" الإستيطيقا التقليدية التي ترى أنّ الجانب الذي يصنع الأثر ويجعله أثرا فنيّا، يكمن في شيء آخر غير جانبه الشيئي- الواقعي نفسه"(علاء عمر النجار، 2021، ص01)**

فانطلاقة هايدغير في طرحه لمشكلة الفن، إنّما هي الطريق الذي لا بد منه وحده لتناول أبعاد الاغتراب الذي أقام فيه الإنسان، ولا يزال بشكل منعزل يرصد مظاهر الوحشة والإقامة في اللّاسكن، بينما الحاجة تتجلّى في ضرورة إدراك أن العالم إمكان يقوم بإصغائنا إلى ذلك الصوت الذي من خلاله، يسعنا أن نقتفي أثر الحقيقة في مظهر مخالف عمّا تعارفت عليه الفلسفات والتصورات السائدة، في استغفالها الممارس على مصطلح الحقيقة، واختصار السبل إليها بمحدودية فيتبيّن لنا في النهاية، لكم كان هذا " التهاون الذي نمارسه عند استعمال هذه الكلمة الأساسية (كفيل إلى حد كبير) ليظهر لنا كم هو قليل وبليد ما نعرفه عن جوهر الحقيقة" (مارتن هايدغيير، 2003، ص110.)فكانت حتمية هذا التشيّؤ الذي أضحى فيه الكائن غائبا عن مسكنه، أكثر ممّا هوحاضر في العالم الخارجي، وحاضر ملكا لهذا الأداتي، الذي هو تحفيز مباشر لأن يظل على بعد عن مستقره بدل أن يقاوم ما أسماه هايدغير سلفا ب " لدغة الطرد"، التي تعدّ واحدة من أكبر الفوارق الأنطولوجية بين الإنسان والكائن بوصفه "دازاين" ، يبحث عن حقيقة هذا الوجود من خلال ما يتملكّه في وضعية القلق بمعناه الأنطولوجي، فيجعل منه حال لابدّ منه انطلاقا من أنّ ذلك، ليس إلاّ مظهرا من مظاهر كينونة الدازاين وحده دون سواه.

صحيح أنّ هايدغير لم يكن يسعى لقيام نظرية إستطيقية، وإنّما قام ثائرا ضدّ مسارها الذي يسعى لتقعيد الجمالي على اعتبار أنّ الجميل، هو تجلّي الحقيقة في ذاتها بما هي كذلك، تقيم عالما يوجد منفتحا على هذه الأرض في طبيعتها المتخفية، وليس غير العمل الفني أرضية ترصد ذلك الانسجام بين ضرورة هذا التضاد والتنازع بين كليهما، وليس بإمكان أحدهما أن يفرض وجود طبيعته على الآخر. لتصبح الحقيقة في السكن من حيث هي كذلك في ماهيتها بما هي "حدوث". ولكن إلى أين يفضي بنا هذا الحقيقي في العرف الأنطولوجي؟.يبدو أنّ ذلك استشكال بديهي ولابدّ منه في آن، ننطلق منه ضرورة ليكون بوسعنا أن نقف على التأسيسات الجوهرية لعديد الظواهر، التي يذيّلها هذا المعنى الجديد الذي قام فيه هايدغير بإعادة طرحه لسؤال الفن أنطولوجيا، من خلال سلك السّبل المؤدية إلى ملامسة الأصل في جوهره، مستعينا في ذلك بالمنهج الظاهراتي في عودته إلى الأشياء ذاتها، وهذا هو المنحى الجديد الذي انعرج به مفهوم الحقيقة، بوصفه الطريق الفريد الذي من خلاله تقوم متحررة علنا من قيود المنهجية والتقييد العلمي، الذي يغتال ماهيتها من حيث أنّها حدث يبقى على ما هو كذلك على الدّوام.

ومن ثمة نكون قد انتقلنا تجاوزا لتلك الرؤية التي تنظر إلى الفن بوصفه خبرة جمالية، تأخذ أبعاد الجميل واختزالها في حدود المتعة التي يتعذّر معها تفسيره، على ذمة أنّ الجميل لا يمكن أن يفسّر أو يحاجج، فأصبح هو الآخر-هذا الجميل- خبرة تتكشّف فيها الحقيقة بأسلوبها الذي يتناوب فيه الخفاء والتجلي أبدا، من منطلق أنّ الحقيقة هي تنكّر/بزوغ واضمحلال في حين واحد، وليس غير العمل الفني فضاء مصون لخصوصية هذا الصراع و حركيته بين المتضادين، وفهمنا لذلك بوعي هو ما يعني أنّنا استطعنا أن نفكر في ماهية الحقيقة بوصفها" أليثيا" يميزها هذا "الرفض ينتمي إلى جوهر الحقيقة بوصفها كشفا على نحو من الإخفاء المزدوج – الحقيقة في جوهرها لا حقيقة"(المصدر نفسه، ص117.) وعلى هذا

النحو فحسب، تظهر الموجودات بتلك الفرادة التي تجعلها بدءًا دوما دونما توصيف قآر لها بشكل مطلق، وتنبجس الكينونة بعوالمها التاريخية التي تهيّء للشعوب والأمم حضورها الأبدي بفواصله الزمانية وتنيرها في الوقت نفسه، إمكان بعدي يتبنى " الماسيكون" سكنا أبديا في فضاء العمل الفني.

ما الذي يقوم به العمل الفني أثناء فاعلية هذا النشاط بين الخفاء والتّجلي؟ وماذا بإمكانه أن يحدث بما لم نألفه سلفا؟ بمعنى كيف يتم ذلك؟ إنها الحقيقة في العمل الفني بأسلوبها الفريد، الذي يقع كشفا في لحظة كليّة مضيئة، يقوم فيها صراع المتضادّات وينسحب نحو اتجاه ذلك السلام الحافظ باطمئنان، للمسافة البرزخية التي تقف عند فواصلها الفوارق الخصوصية بين عالمين متباعديين، ينفتح أحدهما على الآخر قربا، ثم تتقلّص فجوة الاندماج بعدا وتمنعا. وفي حركية هذا الشّرخ/النّزاع الذي هو في الحقيقة، ليس سوى صون لماهية الحقيقة أوّلا، وضمان لقول الوجود بخصوبة ثانيا، حيث يقوم عالم يشيّد ملامح ومظاهر الموجودات في مظهرها المتحقّق/ المومض/ المترفّع عن قهرية العمومي واليومي، فوق هذه الأرض التي لا تعرف غير أن تأتي تمنّعا /خفاءً/ حجبًا لتُبقي على ذلك اللّغز في رحم العمل الفني الولاّد على هذا النحو دون سواه، فضاء الوهب المستنير لحقيقة الأشياء والوجود، التي (...) " لا تمثل إلا كصراع بين النور والخفاء في التعارض بين العالم والأرض... العالم، رمز التكشّف، والأرض رمز التخفّي"(مصدر نفسه،ص100.).

ففي لحظة التّخفي هذه تعلن الحقيقة عن ذاتها في العمل الفني، لا بوصفها ظهورًا مطلقًا يمكن أن نتلمّسه، لأنّ العالم وإن كان على موضع انفتاح وبروز يراود الكائن على إمكانية الإقامة فيه، من خلال ما يمكن ملاحظته على ما يكتسي الموجودات في صفتها الفنية التي تتجلى بها جوهر حقيقتها، **" فالحقيقة بوصفها اللّا تحجّب هي ذلك العنصر الذي يتجلّى فيه الوجود والفكر معا، لأنّ الحقيقة في معناها القوي لا تفيد المطابقة أكثر مما تفيد التّجلّي والانكشاف"(محمد كرد، سحابات مليكة، 2021، ص130)** وهذا ما يمكن أن تعنيه طبيعة العالم داخل الأعمال الفنية، ومع هذا الإمكان من الظهور والبروز فإن ذلك هو المظهر المخصوص في النهاية الذي لن يقوم كشفًا إلاّ ليعود خفاءً، مادامت الأرض وحدها السّكن الذي يقيم فيه باعتبارها الأصل، وهذا الأصل لن يكون في استطاعته الاستغناء عن مظهره الجوهري. فصحيح أن الأرض تخشى فراغها ولن تستقيم أرضا إلا وعالم فوقها، إلّا أنّها تحتوية بما يمنع هتك سرّها القابع في الخفاء أبدًا، لتحدث الحقيقة لا بوصفها تأطيرا للعالم والوجود، و إنّما باعتبارها ذلك الغياب والترحال في سفر" المابين" دون استقرارها، وذلك لأن "(...) الأرض تحطم كل محاولة للنفاذ إليها، وهي تظهر باعتبارها ذلك الذي يفترض كل تكشف ويبقي على الدوام منغلقا على ذاته"(وعلى هذا الاساس يظل العمل الفني في ماهيته هو) " التحجب الذاتي للشيء المحض، وطابع الكشف الذاتي للعالم" (ركماي عبد الله، 2014/2013، ص114.)

ومن ثمة فإنّ تلازمية هذه الثنائية المتضادّة في العمل الفني، لا تعدو أن تكون سوى أنّها السمة الجوهرية التي تختصّ بها الأعمال الفنية، والتي لا تكتفي بقول الحقيقة على هذا المنوال المتأرجح بين الخفاء والبروز، و إنّما على النّحو الآخر الذي يجعل من العمل الفني تبيان كما أشار هايدغير. بيد أنّ هذا يدفعنا إلى أن نتساءل: ماذا بإمكان العمل الفني أن يدشنه؟ قبل معرفة ذلك ينبغي علينا أن نفهم كيف أنّ العمل الفني يدشن شيئا ما، لمّا كان التدشين -والقول لهايدغير-" يعني التقديس، بمعنى أنّ المقدس قد دشن في العمل المقام بوصفه شيئا مقدسا"(مجاهد عبد المنعم، ص89.). إنّ هذا المقدس، هو ما يمكننا أن نلمحه دون نحدّده، عصيٌّ عمّا يتحقق في التوصيف القصدي المباشر، وبعيد بمنأى كليّ عن العادات الصارمة التي تؤطّره على أنّه تمام واكتمال لأنه يقع بين توليفة هذا الهجران والترحال، ليوثّق كيانه على ميعاد محفوظ وليس بإمكاننا محالا أن نسعى إليه سبقًا وادّعاءً لأنّه أبِيٌّ عن المكوث في مناطق التفاضل والانتماء، لا يسعنا بلوغه إلا مطاردة في سفر تجواله. ومع ذلك فإنّه يبقى طموحا ولحظة كشف يؤكّد صيرورتها وتقواها فعل الفهم ونشاط التأويل.

وحدها الحقيقة في العمل الفني، ما يمكنها أن تمنح للعالم والأشياء فسحة تتجاوز من خلالها الخط الزمني الناظم لها بشكل أفقي، فالحقيقة في العمل ضمان حقيقي لرعايتها تدشينا، والتدشين في معناه المساير للحقيقة، فإذا كان "الحدوث" هو الكيفية التي تتحدد بها ماهيتها الجوهرية، فإنّ التدشين في معناه، هو جزء عميق من هذا الأسلوب الذي يميّز الحقيقة إذ أدركنا في حدود خبرتنا فلسفة التدشين باعتبارها "وهب والتدشين كتأسيس والتدشين كبدء"1. فالتأسيس للعالم في الأثر الفني ليس بمعناه المألوف الذي يستجمع الصوروالأشياء، والكائنات بأسلوب وصفي أو إحصائي لا يختلف عن ما يمكن أن تحصله الاستنتاجات المخبرية، والتجارب المادية التي تنطلق من مادة الشيء لتفكك تركيباته، فتنتهي إليه تحليلا ووصفا، و في النهاية يبقى الحجر حجرا بوصفه كتلة صلبة في تركيبها العشوائي، والكلمة غير أنّها كيان صوتي غايته التبليغ، واللّوحة مجرد إعادة تصميم لمشهد قبلي يحاكى فيه العالم والطبيعة على نحو فنيّ، فيتحول الفن إذ ذلك مجرّد صناعة تركيبية أداتية للأشياء والموجودات وإعادة تحويلها.

إنّ من سمات الفن، هو إخراج الأشياء وتخليصها من شيئيتها، من خلال النفاذ إلى أعماقها وسحبها إلى البقعة المضيئة، التي يتكشّف فيها نداء الشيء ليتجاوز قهرية المعتاد، وتترتّب عبر ذلك جوهر حقيقته، باعتباره لم يكن فيها قبلا ولن يتكرر بعدا، فيقوم بعد ذلك عالم لم نألفه فيما كان يواجهنا بشكل يومي مع الأشياء والموجودات نفسها المحيطة بنا، فما يقوم على الأرض التي تختص بعوالم الفن، هو نقيض كلي لما ينتمي إلى الأرض في طبيعتها الفيزيائية، وإن كنّا نتعامل مع مادة الشيء ذاته، ففي الأولى يظهر الشيء بوصفه خلقا إخراجًا/ هبةً/ بدءًا/ تدشينًا، في الثانية صناعةً وتشكيلاً. وهذا هو عينه حد الفارق بين الرؤيا إلى الأشياء بدافع المنفعة، وبين أن تنهض بدافع القلق عن الحقيقة وإدراكها في جوهرها كشفًا وظهورًا. فضلا عن ذلك، تكون ضمن مسار الطّريق الصحيح الذي يتعرّف فيه على المظهر الحقيقي للشيء من خلال العمل الفني، حيث أنّ الموجودات فيه لا تعرف فنائها واضمحلالها، وموتها يعني ولادتها في ظلّ النّزاع بين هذا الظاهر آنا والمتخفي دائما. وتبقى الحقيقة حينئذ، صراع يفضي بها إلى ماهية جوهرها ومسكنها ش ـــي اللاحقيقية.

قد يساعدنا إلى حد بعيد، اللوحة الفنية التي صورت زوجي الحذاء الفلاحي للرسام الألماني فان جوخ الشهيرة. كان من الطبيعي أن يختار هايدغير اللوحة ذاتها، وما يبرّر اختياره لها هو ما يمكننا أن نلاحظه، ونحن نر اقب مشهدية التفاصيل التي ينقلها الحذاء الذي يرتديه الفلاح في يوميات عمله، وبين ما يمكن أن يستفزّنا مظهر ما هو موجود في اللوحة الفنية المقابلة، ورغم أنّ ما تنقله لم يكن إلاّ مجرّد " حذاء فارغ قد رسم بلون بني قاتم، واللوحة لا تخبرنا أين يكون الحذاء فليس هناك شيء يحيط به (سعيد توفبق، 2002، ص98). إنّ ما تقوله لوحة فان جوخ يرتبط بذلك الفارق الفني بين طبيعة الشيء المحض في أداتيته، والحذاء في تفاصيل هذا العمل الفني. ما الذي ينقله فان جورج لإبراز الأثر الفني هذا؟ أليس الشيء نفسه فيما يمكن أن يتبيّن لنا؟ الإجابة تكمن في الأسلوب الذي توقّف عليه إيجاد هذا الحذاء في فضاء العمل الفني من جهة، و في الو اقع من جهة أخرى، وليس بإمكاننا أن ننكر تلك الحقيقة، التي نرى فيها صورة الفلاح وسط الحقل دون أن يتبادر إلى أذهاننا ذلك الجهد المضني وعلائقية الصّلة بينه وبين الأرض، وعالمه الفلاحي حتى وإن استطاع الإنسان أن يشكّل تصوّرا بذلك فإنّه يبقى عند حدود الرؤيا السطحية، التي لا تتعدّى في النّظر إلى الحذاء، بوصفه الوسيلة الأولى لجعل العمل الفلاحي ممكنا. فهذا الحذاء ليس عبارة عن فكرة تنتقل من الوعي المجرد في التصوّر النهائي وتتحوّل إلى منتج إبداعي مجسد.

فالأمر أعمق من هذا لأنّه يتعلق تعلّقا مباشرا بما سميناه بالحقيقة داخل العمل الفني، فالحقيقة لا يمكنها أن تتجلّى بهذا الضرب من المألوفية والاعتيادية، التي لا تتعدّى فيها كونها محاكاة. فالحقيقة في ذلك "طلوع"، بينما المحاكاة ليست أكثر من تردد الشيء في تشكّلات إبداعية، تغيب فيها إمكانية حفظ الشيء في بقعة مضيئة، يقوم فيها عالم في المنفتح، ويغيب خفاءً على الأرض التي تتمنّع، ليبقى تأسيس العالم في حلقة تنطلق من منطقة "مبدأ الخفاء". فالحقيقة في منطق

الأنطولوجيا الهايدغيرية خبرة يدشنها فضاء العمل الفني باعتباره متنفسها الجوهري بشاعرية ذلك أن " حدوث الحقيقة لا يعني أن هناك شيئا يعرض في شكل صحيح، وإنّما يعني أنّ الموجود قد انكشف أي بلغ مرحلة اللاتحجب (هشام معافة، 2010، ص34.)

لوحة فان جوخ الشهيرة

يكشف الحذاء عن شيء آخر، يقطع لنا من خلاله الصّلة بشكل نهائي مع الجلد والمسامير والخيوط، على اعتبار أنّ هذه المواد تركيبته الصناعية، وهي بالمحصّلة ليست إلّا حاجة استخدام تبرّرها المنفعة. بينما لوحة فان جوخ رغم أنّها كانت منظرا منفردا، لم تظهر من خلاله عديد الجزئيات التي بها ربّما يكتمل بوصفه حذاء فلاحي، ومع ذلك استطاعت أن تفتح عالما للمتلقي يلمحه من خلال صلابة هذا الحذاء، التي بواسطتها تتوطد علائقيات الصلة بين الفلاح والأرض، و أنّى يثبت لها مدى اقتداره على مقاومة ثقل الحياة الريفية وغلظتها، وعلى أرضية الجلد تعكس التشقّقات مشاق المنحدرات، التي تكون وحدها على دراية فريدة بهذا الوفاء المأثور الذي يكنّه الريفي إلى الأرض دونما أي كلل، يعيش من خلاله في عزلة الجبال والتلال الوعرة، فينتقل عبرها نداء الأرض وحصادها في صمت يفهمه عناء وتصبّرا، يُرى في الوحدة والألفة التي تُضمّ فيها جانبي خيوط الحذاء، لتثبت بشكل أو بآخر علاقة الاحتواء بين الفلاح وعالمها لذي تكشّف عبر العمل الفني في اللوحة من غير كثافة توصفية، لعناصر هذا العالم ومظاهره.

يقول هايدغير"وضع الحقيقة في العمل الفني يفتح ما لا يدرك، وتقلب معه في الوقت نفسه ما هو مدرك (مارتن هايغير، 2003،ص 149)فلعلّ مسعاة الأنطولوجيا الهايدغيرية في هذه المسألة،منحها بعدا آخر تتعمّق عبره الصلة بعديد

القضايا، التي تأتي تباعا شرطيا باعتبارها جزء ضليعا في بناء أرضية الاستشكال الكبير، الذي انفرد به التفكير الهايدغيري في إطار السؤال الأكبر المتمثل في "سؤال الوجود" الذي يلازم الكائن بحثا عن حقيقة وجوده في العالم ومع الآخر. وقد ارتبط سؤال الحقيقة عند هايدغير بالفن إجمالا، وذلك من خلال الثورة التي أقامها هايدغير ضدّ النظرية الاستطيقية، التي اشتغلت بشكل جدّي على إثر هذه التصورات على مفهوم الجميل و أبعاده المرتبطة بالحقيقة، التي لا يمكن تخيّلها إلاّ بوصفها "انبثاقًا" و"طلوعًا" يكسر نمطها هذا، معايير الانسجام والتناسق التي تمّ تصنيفها حصرا، قيما جمالية ودون ذلك يعدّ تنكّر لماهية الجميل.

ثم تأتي مواجهة أمام ما يحثّه مفهوم الصراع/النزاع بين طبيعة الأرض خفاءً والعالم تجليًّا، ومن هذا التضاد تكمن الحقيقة باعتبارها ما يحدث خلال لحظة النزاع هذه، التي تحصل الأشياء فيها على مستقرّها وموطنها الأصيل. وأنّ هذا التّوتر ليس عبارة عن احتدام يؤدي إلى فوضى العناصر وتشكيلها كيفما اتفق، و إنّما هو عبارة عن النمط الحيوي الذي تضمن به الحقيقة نفسها بوصفها حقائق، تنبثق في عوالم الفن، لأنّ ما يمكن أن يمنحه الفن في اشتغاله على الحقيقة، ليس ما يتعلق بالحقيقة بوصفها موضوعا مثل ما امتدّ ذلك في التصوّر الميتافيزيقي للفلسفات السابقة، فتزّمت النظر إليها ووقعت رهن المطلقية وصرامة الرؤيا المنهاجوية التي أضحى معها كل شيء نسخة واحدة.

أمام ما قامت به الأنطولوجيا الهايديغرية في اهتمامها بالكيفية التي تحدث بها الحقيقة، والعالم الذي يصون طريقة ظهورها بما هي كذلك، وحده ما يبرّر تمظهراتها بين مناطق الحضور والغياب /التكشف والتحجب/ القرب والبعد/وكلّها مظاهر تصقل الخبرة بالجميل، باعتباره الجوهر والحقيقي، والتنكّر لما يمكن أن يصيّره غاية من أجل المتعة واختصاره بابتذالية في معادلة بين "مثير ومستثار"، لأنّ العمل الفني هو "مشروع إحداث الحقيقة، حقيقة انفتاح العالم من أجل انكشاف الموجود ليدل على ذاته بذاته، وإحداث هويته على قاعدة المغايرة و الاختلاف، لا على قاعدة المطابقة و المماهاة" (مجموعة من الأكاديميين العرب، 2013، ص60.)ومادامت الحقيقة "حدوث" فإنّ مجالها الفن دون سواه. لأنّ الإقامة فيما هو أرضي، لا يتحقّق إلا ضمن اللّحظة التي تتأمل اللانهاية سكنا شاعريا تفرضها طبيعة هذا الوجود في حد ذاته الذي تقيم فيه استباقا وتقدّما. ولهذا كان الشعر هو المجال الذي يبقي على مشروع الوجود منفتحا ومفتوحا تندرج ضمنه كلّ الفنون إصغاءً لماهيتها الجوهرية ذات الطبيعة الشعرية.

إنّ الشعر في منحاه التفكيري الإبداعي، الذي يؤسّس للخواء امتلاءً، وللكائن قربه من مسكنه دون فرض تصوّر مسبق يهيئ الطريق للوصول، وحديث الوجود هو اللغة، واللغة هي استشراف على الدّوام، ذلك أنّ مجال الكلمة "هناك"، يتأرجح بين الحضور والغياب في منطقة وسطى تقول ولا تقول شيئا، تنادي و في صمتها عظمة النداء الأكبر، تنير وميضها في بقعة شديدة الإنارة، وتصعق الرؤية بوضوح لتمتنع تحجّبًا وسط النور السّاطع. وبذلك يتأسس ما هو باق في السكن هبةً وحضورًا. إنّها أبّهة المقدس الذي ينفلت عن كل تحديد، أو إدراك يقيم لنفسه الحضور في الغياب، هناك في مقام "الكلمة" التي تؤسس للزمن سياقاته الخارجة عن كل تحديد، ويظلّ الوجود غبطة أبدية، تهزم النّهايات جميعها في صراع المتضادّات وتوتّرها على الإطلاق، حيث لا شك مؤكد ولا شيء مؤكد في"الحدوث".

يقول هولدرلين:

"بل أعني هنا شيئا آخر، مهمّة عُهد بها

إلى عناية الشاعر ومهارته

فنحن مكرّسون لخدمة الأسمى فحسب(فريديريتش هولدرلين، 2009، ص ص141، 142.)

هذا ما يعنيه إيطوس الشعر في الأنطولوجيا الهايديغرية، باعتبارها راعية الوجود في حدود الفعل التأمّلي، وتبرز الحاجة الماسّة للتأويل التي تفرضها متاهات تفتح سبلها الكلمة الشعرية وهي تسحب المقدس الأسمى إلى ال "هناك" فتستدعي الكائن الإنساني إليه معاشرة وخبرة، كأسلوب في الوجود ويتحقق لكل موجود تكشّفه قولًا /تأسيسًا/ وهبًا /وإظهارا/فيبقى الفهم طموح يتأجّج بين الحياة والموت، و"الما بين" هو تأبين للمعنى/المقدس الذي يسعى الشعراء إليه صونا وحفظا وفق ما يقتضيه جوهره.

خاتمة

وجماع القول فيما سبق طرحه، يمكن استخلاصه في مايلي :

1-حاول هايدغير إعطاء مفهوم جديد للّغة، بالعودة إلى اجتراح سؤال الوجود الذي يعدّ المهمة الرّئيسية، التي تعيد الذّات إلى مسارها الصّحيح، وسكنها الأصلي الذي يقيم فيه الكائن تأويلا وفهما. والتّعامل مع الظّواهر و الأشياء من قبيل المعطى الذي لم يلحق بها لفهم قبلا ولا بعدا، على اعتبار أنّ الوجود منجز يقوم تأسيسا، هبة، حضورا في رحاب"اللّغة."

2-اللّغة في ماهيتها الأنطولوجية، تجعل من اللّغة تجربة لا مؤسّسة يتمّ التّقعيد لها منطقياّ، نحويا و إنّما بوصفه االممكن الذي يقيم بداخله الإنسان لتقول ذاتها من خلاله، والعالم والأشياء على نحو مفكّر فيه ما يجعل الوجود نداء الكلمة التي تتجلّى إلّا: صمتا/إصغاء لنداء هذا الوجود.

3-إنّ ما يبرّر مسألة الربط العلائقي بين الحقيقة والعمل الفني في الخطاب الأنطولوجي، هو ما آل إليه الإنسان المعاصر، الذي أضحى يعيش نوعا من الفتور الوجداني، والقلق الروحي وذلك في بعده عن ذاته والوجود من حيث هو سؤاله الأساسي.

4-استطاع الطرح الأنطولوجي أن يغيّر مفاهيم الجميل التي أرستها نظريات الجمال الكلاسيكية، إذ أضحى المظهر المختص بالحقيقة التي لا يمكن تجلّيها إلّا بما هي كذلك: حجبا/ كشفا/ خفاء/ ظهورا/، وهو الخبرة التي من خلالها تتكشّف ماهية الوجود والأشياء على نحو أصيل في العمل الفنّي.

قائمة المراجع:

1. بن طروات جلول. (2013). اللغة ووضعية العلامة في فلسفة هايدغير الأنطولوجية، مجلة أنثروبولوجيا الأديان، مجلد09، العدد 01، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.
2. ركماي عبد الله. (2014/2013). الوعي الجمالي في الخطاب الفلسفي –هيجل نموذجا-،مذكرة ماجيستير، جامعة وهران، الجزائر.
3. سعيد توفبق. (2002). الخبرة الجمالية: دراسة في فلسفة الجمال الظاهر اتية، دار الثقافة، القاهرة، د-ط.
4. صفاء عبد السلام جعفر. (2001). أنطولوجيا اللغة عند مارتن هايدغير: دراسة فلسفية في قصيدة الكلمة لجيورجه، دار الوفاء، الإسكندرية،دط.
5. صفاء عبد السلام جعفر. (د ت). الأصل في اللغة -دراسة أنطولوجية في قصيدة تراكل "أمسية شتوية"، دار الوفاء، الإسكندرية، د-ط.
6. شنوف نصر الدين. (2022). أنطولوجيا اللغة عند مارتن هايدغير، مجلة جسور المعرفة، مجلد08، عدد04، حسيبة بن بوعلي، الشلف.

7. عبد الغني بارة. (2008). الهيرمينوطيقا والفلسفة -نحو مشروع عقل تأويلي-منشورات الإختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى.
8. عبد الغني بارة. (2017). الضيافة اللغوية وخطاب الهوية-مقاربة تأويلية-، الجزائر، العدد30.
9. علاء عمر النجار.(2021). هايدغير والفن: أو كيف يقول الفن الحقيقة بطريقته؟، مجلة أنفاس، موقع إلكتروني: https: //anfasse.org.
10. فريديريتش هولدرلين. (2009). مختارات شعرية، تر: حسن حلمي، دارتوبقال، المغرب، الطبعة الأولى.
11. مارتن هايدغير. (1994). إنشاد المنادى، تر:بسام حجار، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
12. مارتن هايدغيير. (2003). أصل العمل الفني، تر: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، ألمانيا، الطبعة الأولى.
13. مارتن هايدغير. (2003). أصل العمل الفني، تر: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، ألمانيا، الطبعة الأولى.
14. مجاهد عبد المنعم. (د ت). فلسفة الفن الجميل، دار الثقافة، القاهرة، د. ط، د. ب.
15. مجموعة من الأكاديمين العرب.(2013). من الكينونة إلى الأثر: هايدغير في مناظرة عصره، ابن النديم الجزائر، الطبعة الأولى.
16. محمدّ سباع. (2015). تحوّلات الفينومينولوجيا المعاصرة -ميرلوبونتي في مناضرة هوسرل وهايدغير-،المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت، الطبعة الأولى.
17. هشام معافة. (2010). التأويلية والفن عند هانز جورج غادامير، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى.
18. محمد كرد، سحابات مليكة. (2021). الفن وإشكالية الحقيقة في فلسفة مارتن هايدغير، مجلة المدونة، مجلد08، عدد01، جامعة البليدة02، البليدة.
19. سعيد توفيق. (2002). في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى.